



تقييم حالة

# العلاقات السياسية الروسية – السعودية المعاصرة: رؤية روسية

غريغوري كوساتش | نوفمبر 2015

العلاقات السياسية الروسية – السعودية المعاصرة: رؤية روسية

سلسلة: تقييم حالة

غريغوري كوساتش | نوفمبر 2015

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2015

---

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقية والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليةّ عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجٍ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

---

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات

شارع رقم: 826 - منطقة 66

الدفنة

ص.ب: 10277

الدوحة، قطر

هاتف: +974 44199777 | فاكس: +974 44831651

[www.dohainstitute.org](http://www.dohainstitute.org)

1	مقدمة
1	عودة العلاقات الروسية - السعودية وانعكاسها الإقليمية والدولية
5	تراجع العلاقات الروسية - السعودية
8	العلاقات الروسية - السعودية بعد صعود بويتن
14	العلاقات الروسية - السعودية وثورات "الربيع العربي"
20	خاتمة

## مقدمة

تبدو علاقات روسيا بالمملكة العربية السعودية في وثائق الخارجية الروسية حتى عام 2011 مُترعةً بالتفاؤل. وكما جاء في تقرير وزارة الخارجية الروسية المعلن في تشرين الأول/ أكتوبر 2011، فإنّ مواقف البلدين "متطابقة" أو "متقاربة" في "أغلبية القضايا العالمية والإقليمية". ويورد ضمن هذه القضايا "البرنامج النووي الإيراني"، و"النزاعات في الشرق الأوسط"، و"النزاع العربي - الإسرائيلي"، و"حظر انتشار سلاح الدمار الشامل"، و"مكافحة التطرف والإرهاب"<sup>1</sup>. وينبثق من الـ "تطابق" في المواقف بين البلدين أنّ روسيا تعدّ شريكها السعودية، بحسب قول الرئيس فلاديمير بوتين، في أيلول/ سبتمبر 2003، "إحدى الدول القيادية في العالم الإسلامي"<sup>2</sup>.

ربما يتزاي عاملٌ موضوعي متمثّل بالمصلحة السياسية المتبادلة من أجل تطوير العلاقات الروسية - السعودية. وقد بدت نتائج الزيارة الرسمية التي أجراها الأمير عبد الله بن عبد العزيز لموسكو في أيلول/ سبتمبر 2003 واعدةً من هذه الناحية، وكذلك زيارة الرئيس فلاديمير بوتين الرسمية إلى الرياض عام 2007. لكنّ "تطابق" مواقف البلدين الذي تؤكّده الوثائق الرسمية يتسم بصفة شكلية.

## عودة العلاقات الروسية - السعودية وانعكاساتها الإقليمية والدولية

في 17 أيلول/ سبتمبر 1990 وقّع الاتحاد السوفياتي والمملكة العربية السعودية اتفاقية متعلقة بتبادل بعثتين دبلوماسيتين على مستوى السفراء، وبهذا اختُتمت فترة المواجهة الدولية والإقليمية الطويلة الأمد. وكما جاء في البيان المشترك الصادر عنهما، يسترشد كلا البلدين بالسعي لـ "تطوير علاقات الصداقة لما فيه خير شعبي الدولتين على أساس "مبادئ التعايش السلمي والمساواة والاحترام المتبادل للسيادة"، وبالعامل على "تسوية النزاعات

<sup>1</sup> "العلاقات الروسية - السعودية"، وزارة خارجية روسيا الاتحادية، 2011/10/10، انظر: <http://bit.ly/1LZqffl>

<sup>2</sup> كلمة فلاديمير بوتين، رئيس روسيا، في أثناء لقاء وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، الكرملين، 2003/9/2، انظر:

<http://bit.ly/20cnctO>

الإقليمية، وتطوير التعاون الدولي وتعزيز السلم والأمن الدولي<sup>3</sup>. ومهدت إعادة العلاقات مع المملكة العربية السعودية الطريق أمام الاتحاد السوفياتي/ روسيا نحو إقامة صلات مباشرة مع جميع بلدان مجلس التعاون الخليجي، وأقيمت أول مرة في التاريخ السوفياتي/ الروسي علاقات مع جميع دول المنطقة العربية.

إنّ إعادة العلاقات السوفياتية/ الروسية – السعودية هي جزء من التحولات في منظومة العلاقات الدولية في مطلع التسعينيات، وقد أملت عمليات إعادة البناء الداخلي في الاتحاد السوفياتي و"التفكير السياسي الجديد" في مجال السياسة الخارجية السوفياتية. وكانت حصيلة هذه التحولات حدوث التقارب مع الولايات المتحدة الأميركية، وتغيير النظرة إلى المنطقة الأفرو-آسيوية. وبعد أن أعلن الاتحاد السوفياتي أنّ أساس سياسته الخارجية يتوجه نحو "القيم البشرية العامّة"، فإنه لم يجد في هذه المنطقة ساحة للمواجهة بين الدولتين العظميين؛ إذ وُجدت دول "تقدمية" وأخرى "رجعية"، بدءاً من النظر إلى النزاعات في حدود هذه المنطقة بوصفها تحدياً، يجب الرد عليه بأفعال منققة عليها من المجتمع الدولي بأسره. وفي هذا السياق أصبح من الطبيعي إقامة علاقات مع الدول التي كانت تُعدّ سابقاً من حلفاء أميركا الإقليميين (يشمل ذلك أيضاً العلاقات السوفياتية/ الروسية – السعودية)<sup>4</sup>.

لقد تحدّد "التفكير السياسي" السوفياتي/ الروسي الجديد، ونتيجةً له، جرى تطبيق نهج تصحيح لمنظومة الأولويات الإقليمية، بأوضاع التطور الداخلي، من وجود الاتحاد السوفياتي في الأعوام الأخيرة، وعوامل قيام روسيا الحديثة. وإنّ إعلان الجماعات الجديدة للنخبة السياسية، وهي الملقبة حول أول رئيس روسي بوريس يلتسين، شعار "الديمقراطية" كان موجهاً ضدّ "الشريحة الحزبية العليا الشيوعية". وطالب "الليبراليون" بالدخول إلى "الحضارة العالمية" وشكّلوا كتلةً من أنصارهم، بالاعتماد على جزء من "الشريحة الحزبية العليا الشيوعية" نفسها التي شكّلت، بعد الاتحاد السوفياتي، النُخب الحاكمة في الدول الناشئة والكيانات الإثنية في روسيا، وزعماء الطوائف والهيئات الدينية (منها الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وزعماء الهيئات الإسلامية)، وكذلك أتباع مختلف أنواع

<sup>3</sup> "البيان المشترك السوفياتي-السعودي"، إزفستيا، 19/9/1990.

<sup>4</sup> في سياق الحديث عن منطق التحرك في هذا الاتجاه، كتب أحد واضعي نهج التقارب مع المملكة العربية السعودية وعضو قيادة الجهاز الدولي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في نهاية التسعينيات ما نصّه: "تعاون الاتحاد السوفياتي مع جزء من العالم العربي فقط، والطريق إلى الرياض يمر عبر واشنطن، وسياستنا كانت مرتبطةً بالانقسام في العالم العربي"، انظر: ك. ن. بروتنتس، ثلاثون عاماً في ستاريا بلوشاد (موسكو: العلاقات الدولية، 1998)، ص 368.

"الأفكار الوطنية - القومية المتشددة". وعكس مجال السياسة الخارجية التي تخلت عن المواجهة بين القطبين، وأعدت تقييم الأولويات الإقليمية، العمليات السياسية الداخلية السوفياتية/ الروسية.

وفي النصف الثاني من نيسان/ أبريل 1992، أجرى أندريه كوزيريف أول وزير خارجية روسي زيارات رسمية لبلدان الخليج والتقى في الرياض الملك فهد بن عبد العزيز<sup>5</sup>. وجاء في تعليق رسمي على هذه الزيارة: "لقد عكست الزيارة نية روسيا اتباع نهج متوازن في العلاقات مع الدول (العربية) في المنطقة، وتطوير العلاقات مع الدول التي تتبع سياسة معتدلة معقولة ولا تحقق الرفاهة لشعبها فقط، بل تساهم بقسط ملموس في الحضارة العالمية، وفي استقرار منطقة الخليج وأمنها". وأكدت القيادة الروسية على أن سياستها في منطقة الخليج تنطلق من مبدأ "الشراكة مع الولايات المتحدة" بوصفها أساس إقامة "منظومة متينة لأمن المنطقة". وناقش كوزيريف في محادثاته في الرياض، من بين أمور أخرى، الوضع في شمال القوقاز، وأعرب في الرياض عن "التفهم والموقف الإيجابي" من الموقف الروسي تجاه "التطرف".

وأعلن الجانب الروسي أنه سيدعم "تهيئة الأوضاع" من أجل أن يلتقي "ملايين المسلمين الروس إخوانهم في العقيدة، في أداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة"، كما أعرب في الوقت نفسه عن أمله أن يفهم المسلمون على غرار المملكة العربية السعودية وبلدان الخليج التي تتبع "سياسة خارجية وداخلية معقولة ومرتنة"، أن "الرفاهة الحقيقية للدولة (الروسية) لا يمكن أن يتحقق إلا في حال "التخلي عن كل تطرف، وعدم الزج بالإسلام في السياسة"<sup>6</sup>. واكتسبت "مسألة المسلمين" في روسيا سمة قيمة ذاتية تمارس تأثيرها في بلوغ التفاهم الروسي - السعودي.

لقد اعتقد الخبراء الروس في مطلع التسعينيات، بغض النظر عن ميلهم السياسي، أن الخطر على أمن روسيا "المقبل من الجنوب" يأتي من "الأصولية الإسلامية" الإيرانية، ومن النزعة "الطورانية" التركية<sup>7</sup>. وهذا الخطر، كما كتب متخصص بشؤون المملكة العربية السعودية حينئذٍ، يمكن أن يبعث إلى الوجود "الكتلة الموحدة ذات

<sup>5</sup> "جولة أندريه كوزيريف في بلدان الخليج" دبلوماسي فيستنيك، العددان 9-10 (أيار/مايو 1992)، ص 18.

<sup>6</sup> المرجع نفسه، ص 36-38.

<sup>7</sup> ألكسندر إيغناينكو، "الإسلام في الصراع من أجل الزعامة السياسية"، في: إيغور يرمكوف ودميتري ميكلوسكي (مراجعان مسؤولان)، الإسلام في روسيا وآسيا الوسطى (موسكو: د. ن، 1993)، ص 166-174؛ وانظر أيضاً: روبرت لاند، الإسلام في تاريخ روسيا (موسكو: د. ن، 1995)، ص 260-281.

الاتجاه المعادي لروسيا على قاعدة الأصولية الإسلامية أو الدعوة الأترابية، وهي تضمّ الدول الإسلامية السوفياتية سابقاً والأقاليم "الإسلامية" الروسية. وبغية استبعاد ظهور هذه "الكتلة" يجب على روسيا، بحسب رأيه، أن "تتحول إلى شريك وديّ ومتكافئ الحقوق لـ "البلدان الإسلامية" في الخارج البعيد"، ومنها دول الخليج<sup>8</sup>. وإن إدراك أهمية العمل في هذا الاتجاه قد دفع روسيا إلى تطوير العلاقات مع منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي عام 1994 زار موسكو أمينها العامّ حامد الغابدي<sup>9</sup>.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1994، زار فكتور تشيرنوميردين، رئيس وزراء روسيا الاتحادية، المملكة العربية السعودية (وغيرها من بلدان الخليج)، وقد استقبله في الرياض الملك فهد بن عبد العزيز، وولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ونوقشت خلال المحادثات معهما "القضايا الدولية ذات الاهتمام المشترك"، ومنها مؤتمر السلام في مدريد، والوضع الناشئ بعد فرض العقوبات الدولية على العراق، وكذلك "مختلف جوانب العلاقات الثنائية"<sup>10</sup>. وفي العاصمة الروسية رأوا أنّ تبادل الآراء الذي جرى "قد أظهر تشابهاً وتقارباً في المواقف"، وأنّ "الثقة السياسية" الناشئة بين الجانبين افترضت أن يعمل على تطوير العلاقات "في المجال الاقتصادي". وتميزت الوثائق التي وقّعها فكتور تشيرنوميردين في أثناء الزيارة بحسب قول الصحيفة الصادرة عن وزارة الخارجية الروسية بأنها "خطوة مهمة" في طريق "الانتقال بها إلى مستوى جديد نوعياً".

وكتب خبير وزارة الخارجية الروسية خلال تقييم الاتجاه الجديد للسياسة الخارجية الروسية أنّ "التعاون الشامل" الذي بدأ بين روسيا وبلدان الخليج، وفي صدارتها المملكة العربية السعودية، يؤكّد "النهج العامّ لإشاعة الديمقراطية في السياسة الخارجية"، ويتجاوب مع مصالح "القيادة الروسية الديمقراطية"؛ إذ يساعدها على "مكافحة المعارضة المتشددة والقوى الانتقامية في داخل البلاد"<sup>11</sup>. أمّا الخبراء من المعسكر السياسي المواجه لـ "الديمقراطية" في داخل البلاد، فقد

<sup>8</sup> ألكسندر فاسيليف، "روسيا والعالم الإسلامي: شركاء أم خصوم؟"، إزفستيا، العدد 59 (أذار/مارس 1992)، ص 3.

<sup>9</sup> تعاون روسيا مع منظمة المؤتمر الإسلامي - روسيا ومنظمة التعاون الإسلامي: مجموعة وثائق ومواد (موسكو: معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية/ مجلس المفتين في روسيا، 2008)، ص 15.

<sup>10</sup> زيارة فكتور تشيرنوميردين للمملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وعمّان، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 23-24 (كانون الأول/ ديسمبر 1994)، ص 9-10.

<sup>11</sup> كاساتكين، "هل سيصبح الشرق الأوسط من أولويات روسيا؟"، مجدوناوردنايا جيزن، العدد 4 (1994)، ص 69-72.

أكدوا عدم قبول "التقييمات المبتهجة لـ"إمكانات تعاون روسيا مع المملكة العربية السعودية"، والتركيز في ضرورة استئناف "العلاقات المتعددة الجوانب مع حلفاء السوفيّات التقليديين في العالم العربي" <sup>12</sup>.

## تراجع العلاقات الروسية - السعودية

أدت العمليات العسكرية في جمهورية الشيشان التي بدأت في كانون الأول/ ديسمبر 1994 إلى حدوث أزمة في العلاقات الروسية - السعودية، وقد كانت في طور النشوء. وجاء في الوثيقة الرسمية لوزارة الخارجية الروسية أنّ أيّ اتصالات سياسية مهمّة بين البلدين لم تجرِ بدايةً من تشرين الثاني/ نوفمبر 1994، حتى أيلول/ سبتمبر 2003 <sup>13</sup>. وكانت الرواية الرسمية الروسية بسبب هذه الأزمة تنطلق كما ذكر السفير الروسي الذي عمل في الرياض في الفترة 2000 - 2005 من "تباين مواقف الجانبين من الأحداث في القوقاز" <sup>14</sup>.

وقد أدّى تطوّر الوضع السياسي الداخلي في روسيا إلى تفاصيل معادية للمملكة العربية السعودية؛ إذ عدّت مصدرًا لـ "الأيدولوجية الوهابية" التي يجري غرسها بـ "أوامر أميركية" في شمال القوقاز الروسي (وكذلك في أقاليم حوض الفولغا ومنطقة الأورال)، من خلال الصناديق والمنظمات الخيرية السعودية. ومع احتدام المعارك الحربية، وُصفت عمليات التشكيلات المسلّحة المواجهة للجيش الروسي بأنها تجري تحت قيادة "أجانب" يوجد بينهم "عدد كبير من الرعايا السعوديين" الذين كانوا يشجعون "الجهاد" عبر مؤسستهم الحكومية - الدينية <sup>15</sup>.

<sup>12</sup> بلدان شبه الجزيرة العربية. روسيا والأقطار العربية: قضايا وآفاق التعاون (موسكو: مجلس الدوما في روسيا الاتحادية، 1994)، ص 39-40.

<sup>13</sup> "العلاقات الروسية - السعودية"، وزارة خارجية روسيا الاتحادية.

<sup>14</sup> أندريه باكلافوف، "كان الملك عبد الله يعرف حق المعرفة الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة مرموقة"، فيستنيك كافكازا، 2015/1/23، انظر:

<http://www.vestikavkaza.ru/interview/Andrey-Baklanov-Korol-Abdalla-prekrasno-znal-lyudey-polzovsya-ogromnym-avtoritetom.html>

<sup>15</sup> م. رجب الدينوف، بعض جوانب العلاقات الروسية - السعودية: العلاقات الروسية - السعودية: القضايا والآفاق (موسكو: معهد دراسة إسرائيل والشرق الأوسط، 2003)، ص 8 - 14.

ثم إنَّ الحملة الكلامية ضدَّ المملكة السعودية قد اشتدتَّ بمناسبة الأحداث في مناطق يوغسلافيا السابقة. فاستنادًا إلى اتباع "الفكرة القومية – الوطنية" الروسية، عدَّ الروس إعلان استقلال البوسنة والهرسك والحركة في كوسوفو نحو الانفصال عن صربيا بمنزلة "عدوان ارتكبه الناتو وتنظيم القاعدة الوهابي" ضدَّ "الأرثوذكسية في البلقان". وتصدى لهذا "العدوان" المتطوعون الروس الذين حاربوا إلى جانب الجمهورية الصربية في البوسنة<sup>16</sup>. ولئن اعترفت روسيا في حالة البوسنة بوصفها دولةً تكونت بعد يوغسلافيا السابقة، فإنَّها عدَّت "قضية كوسوفو" نتيجةً مباشرةً للأفعال المشتركة من جانب "الانفصاليين الألبان"، و"المعتدي الأطلسي"، و"التشكيلات المسلَّحة للمجاهدين من باكستان وأفغانستان وبعض بلدان الخليج، بمساعدة فعَّالة من الاستخبارات السعودية"<sup>17</sup>. واتسمت فكرة التعاون الوثيق السعودي – الأميركي بسمات الواقع مرَّةً أخرى؛ إذ أصبحت تُحدِّد النظرة الروسية إلى المملكة العربية السعودية. وقد أنكر وزير الخارجية الروسي إيغور إيفانوف ما أعرب عنه الأمير سعود الفيصل في أثناء زيارته موسكو، آخر آذار/ مارس 1999، من "قلق حول مصير المسلمين الألبان"؛ وذلك من خلال قوله بلهجة قاطعة: "قصف الناتو يطال الجميع بغضَّ النظر عن القومية والدين"<sup>18</sup>.

شهد النصف الثاني من عقد التسعينيات تغييرات كبيرةً على الناحية السياسية والاجتماعية الروسية. فقد أدَّى تنامي التوتر الاجتماعي الناجم عن المصاعب الاقتصادية والعمليات العسكرية في شمال القوقاز إلى إرغام أوَّل رئيس روسي النَّأي عن "الليبراليين" (كان اتباع هذا المعسكر السياسي الأكثر تشددًا يعارضون العمليات العسكرية في جمهورية الشيشان). ورفدت النُخبة السياسية الروسية بشخصيات منتمية إلى "الشريحة الحزبية الشيوعية" المتحالفة مع أنصار "الفكرة القومية – الوطنية" والمدعومة من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وزعماء بعض الهيئات الدينية الإسلامية الذين أعلنوا انتماءهم إلى "روسيا المقدسة" أيضًا. وضمتَّ النُخبة المتغيرة كبار ضباط الجيش وأجهزة الأمن، وأصرَّت، من دون التشكيك في التحولات الاقتصادية المنفَّذة، على "تصفية احتكار الرأسمال غير الوطني".

<sup>16</sup> انظر على سبيل المثال: ج. ستودنيف، "المتطوعون الروس في البلقان، في الذكرى الـ 15 لعدوان الناتو على يوغسلافيا"، ريدوس، 2014/3/24، على الرابط: <http://www.ridus.ru/news/157030>

<sup>17</sup> "عدوان الناتو على يوغسلافيا"، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 5 (أيار/مايو 1999)، ص 4-5.

<sup>18</sup> "روسيا – المملكة العربية السعودية: زيارة سعود الفيصل لروسيا"، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 4 (نيسان/أبريل 1999)، ص 16.

جاء في عقيدة الأمن القومي لروسيا الاتحادية الصادرة في كانون الأول/ ديسمبر 1997 أنّ أحد أكبر الأخطار التي تواجه كيان الدولة الروسية هو "التطرف السياسي والديني" الذي "تستغله دول أخرى" بغية "مقاومة توطد مواقع روسيا بصفتها أحد مراكز النفوذ في العالم المتعدّد الأقطاب". وترى هذه العقيدة أنّ أداة هذا الخطر تتمثّل بـ "العمليات العسكرية لحلف الناتو"، وبـ "ازدياد نشاط المنظمات الإرهابية الأجنبية"<sup>19</sup>. وتحدّث الخبراء الروس (اعتمادًا على معطيات جهاز الأمن الفدرالي) عن إقامة علاقات شخصية منذ مطلع التسعينيات بين أسامة بن لادن ورؤساء بعض الهيئات الإسلامية في أقاليم روسيا، وعن أنّ تعليم المسلمين الروس، في المؤسسات الدينية في المملكة العربية السعودية وبلدان الخليج، يمثّل "قناةً تتسلل إلى روسيا عبرها أشكال الإسلام الغربية عنها"<sup>20</sup>. ثمّ إنهم صاروا يوردون إعادة تقييم انتقادي لنشاط الصناديق الخيرية السعودية، مؤكدين أنّ هذه الصناديق "تُبدّي ثقةً زائدةً" تجاه الشخصيات "غير المستقيمة" المتحدثة باسم الإسلام<sup>21</sup>.

إنّ تعريف "الشخصيات الإسلامية غير المستقيمة" بمنزلة تلطيف للوصف يكمن وراءه أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى روسيا، في النصف الثاني من التسعينيات ومطلع الألفية الثالثة، متمثّل بانقسام المجتمع الإسلامي. وقد عملت مساعدات الصناديق الخيرية السعودية على انبثاق هيئات دينية إسلامية (هيئات إفتاء) جديدة في الأقاليم تتبع نهجًا ترى الدولة أنه يتجافى عن مصالحها، ويمهد الطريق نحو اتباع مواطني روسيا المسلمين مدارس فقهية غير حنفية. ونشأ جيل جديد من الشخصيات الدينية تناضل ضدّ من اتهمتهم بـ "الخنوع للسّلطة"، ووصفتهم بأنهم من "ورثة الماضي الشيوعي".

لم يعدّ الاتجاه السعودي من أولويات السياسة الخارجية الروسية. وفي أثناء الإشارة إلى "ضمان أمن روسيا"، ورد في عقيدة الأمن القومي أنّ إحدى أدواتها في مضمار التصدي للتحديات الشاخصة أمامها هو "تطوير

<sup>19</sup> مجلس الأمن القومي لروسيا الاتحادية، "عقيدة الأمن القومي لروسيا الاتحادية"، انظر:

<http://www.scrf.gov.ru/documents/1.html>

<sup>20</sup> انظر مثلاً: ك. بولياكوف وأ. حسنوف، الشرق العربي وروسيا: قضايا الأصولية الإسلامية (موسكو: مطبعة الاتحاد السوفياتي، د. ت)، ص 120-135.

<sup>21</sup> ك. بولياكوف، العامل الإسلامي في عملية تكوين العلاقات الروسية - السعودية في التسعينيات من القرن العشرين، الملك المصلح: رؤية الأنتلجنسيا الروسية (موسكو: بروغريس، 2002)، ص 58-60.

العلاقات مع الشركاء التقليديين في الشرق الأوسط<sup>22</sup>. وذكر الرئيس بوريس يلتسين في خطابه الموجه إلى الجمعية الفدرالية في آذار/ مارس 1999 أنّ "المهمّة الكبيرة" الشاخصة أمام الدبلوماسية الروسية هي إقامة "حزام حسن جوار" على امتداد حدودها مع الجارتين الجنوبيتين إيران وتركيا<sup>23</sup>.

## العلاقات الروسية – السعودية بعد صعود بوتين

أحدث مجيء بوتين إلى أعلى منصب في السُلطة التنفيذية تغييرًا في العلاقات الروسية – السعودية. فالوضع في جمهورية الشيشان الذي تواصلت فيه العمليات العسكرية قد اضطرّ القيادة الروسية إلى إجراء اتصالات مع المملكة العربية السعودية بغية إيقاف المساعدات الخارجية لـ "الانفصاليين الشيشان" نهائيًا. وفي وسط كانون الثاني/ يناير 2000، زار موسكو وفد من "كبار الشخصيات" في منظمة التعاون الإسلامي أعلن "ثبات موقف" المنظمة "لمصلحة صيانة وحدة أراضي روسيا الاتحادية"، وأعرب عن "إدانة الإرهاب بوصفه ظاهرةً تتعارض مع المبادئ الأساسية للإسلام"<sup>24</sup>. وفي أواخر كانون الثاني/ يناير 2003، زار موسكو عبد الواحد بلقزيز، الأمين العامّ لمنظمة التعاون الإسلامي، تلبيةً لدعوة من إيغور إيفانوف. وأشار وزير الخارجية الروسي خلال إيراد نتائج المحادثات معه إلى أنّ الجانب الروسي "وجد تفهّمًا لجهد القيادة الروسية الهادف إلى استقرار الوضع في جمهورية الشيشان"، واستحدث في وزارة الخارجية الروسية منصب نائب وزير الخارجية لشؤون العلاقات مع المنظمات الإسلامية الدولية<sup>25</sup>.

في مطلع شباط/ فبراير 2000، استقبل إيغور إيفانوف في موسكو رؤساء الوفود العربية المشاركة في اجتماع مجموعة دعم المحادثات المتعدّدة الأطراف في الشرق الأوسط (من بينهم نزار مدني وزير الدولة للشؤون

<sup>22</sup> "عقيدة الأمن القومي...".

<sup>23</sup> "من رسالة رئيس روسيا الاتحادية إلى الجمعية الفدرالية، نشرة الدبلوماسية (نيسان/أبريل 1999)، ص 4، انظر:

<http://bit.ly/1M38fnX>

<sup>24</sup> "روسيا – منظمة المؤتمر الإسلامي، وفد منظمة المؤتمر الإسلامي في روسيا"، دبلوماسيتشسكي فيستنك (شباط/فبراير 2000)، ص 4.

<sup>25</sup> نسخة الاختزال لكلمة وزير الخارجية إيغور إيفانوف في المؤتمر الصحافي المشترك في ختام المباحثات مع عبد الواحد بلقزيز، الأمين

العامّ لمنظمة المؤتمر الإسلامي، انظر: <http://bit.ly/1NCFlu7>

الخارجية السعودي) وأبلغهم "تدابير استعادة الحياة السلمية في المناطق المحررة من جمهورية الشيشان"، وأعرب عن "امتنان" الجانب الروسي إزاء "المساعدات الإنسانية التي قدمتها البلدان العربية إلى الأهالي المسالمين في جمهورية الشيشان". وعُدّت هذه الأقوال في الرياض بمنزلة "رد اعتبار" للصناديق الخيرية السعودية، وحدّد ذلك لهجة الفقرة الختامية للوثيقة آنفة الذكر، فقد جاء فيها: "أكّد الوزراء العرب الموقف المبدئي لبلدانهم في دعم وحدة أراضي روسيا الاتحادية وسلامتها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، ودانوا الإرهاب"<sup>26</sup>.

وفي مطلع آذار/ مارس من عام 2000 أيضاً، زار العاصمة السعودية رمضان عبداللطيفوف، وزير شؤون السياسة القومية الروسي، بصفته المبعوث الخاص للرئيس بوتين، وأجرى لقاءً مع وليّ العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز. ويشار في الوثيقة الرسمية المتعلقة بأهداف البعثة وتأكيد طابعها المتعدّد الجوانب إلى أنها شملت بحث "آفاق تطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية" و"الوضع في المنطقة، ومن ثمّ عملية السلام في الشرق الأوسط والوضع المتعلقة بالعراق ضمناً". كما عرض الوزير وجهة النظر الروسية تجاه جمهورية الشيشان وخلصتها أنه "تجري هناك استعادة الشرعية الدستورية والنظام". وقد نفذت هذه المهمة؛ إذ حصل عبداللطيفوف على تأكيدات الجانب السعودي أنّه "يحترم وحدة روسيا وسلامة أراضيها ومبدأ عدم التدخل في شؤونها الداخلية"، وأنّ الصناديق الخيرية السعودية "ستتسقّ الجهد" مع دوائر السُلطة الروسية في أثناء "تقديم المساعدة الإنسانية إلى سكان منطقة شمال القوقاز"<sup>27</sup>.

إنّ استبعاد العامل "المزعج" في مجال العلاقات الروسية - السعودية؛ أي "القضية الشيشانية"، وضمن ذلك الاستناد إلى قرار فلاديمير بوتين عام 2000 المتمثّل بتعيين أحمد قاديروف رئيساً لجمهورية الشيشان<sup>28</sup>، قد أملّى خروجها من وضع الركود. وبغية دعم التحرك في هذا الاتجاه أصدر الرئيس الروسي "قجأة" في 13 أيار/ مايو 2003 (على خلفية أقواله السابقة) بياناً حول تشابه "الأحداث المأساوية والعمليات الإرهابية في كلّ من جمهورية

<sup>26</sup> لقاء إيغور إيفانوف لرؤساء الوفود العربية، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 4 (نيسان/أبريل 2000)، ص 5.

<sup>27</sup> روسيا - المملكة العربية السعودية - الإمارات العربية المتحدة، زيارة رمضان عبداللطيفوف إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 4 (نيسان/أبريل 2000)، ص 6.

<sup>28</sup> باكلانوف.

الشيخان والمملكة العربية السعودية<sup>29</sup>. وأدّى الدفء في العلاقات الروسية - السعودية، بالنظر إلى الأحداث في العراق وتطور عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية، إلى تعزيز الاتجاه الناشئ مرةً أخرى، ولا سيما أنّ المسؤولين في العاصمة الروسية أيدوا مبادرة الأمير عبد الله بن عبد العزيز المعروفة بـ "مبادرة السلام العربية"<sup>30</sup>. وفي أيار/ مايو 2003، أثناء زيارة سعود الفيصل العاصمة الروسية، أعلن نظيره الروسي إيغور إيفانوف أنّ الروس "ينتظرون بفارغ الصبر مجيء وليّ عهد المملكة العربية السعودية"<sup>31</sup>. وفي مطلع أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، أجرى الأمير عبد الله بن عبد العزيز زيارةً رسميةً للعاصمة الروسية.

وقد سعت القيادة الروسية، خلال استقبال العاهل السعودي، لإيجاد حلّ نهائيّ لمسألتي إحلال الاستقرار في شمال القوقاز وتأثير تحديات التطرف الديني في الوضع الروسي العام. وانبثقت من هذه المهمة جوانب أخرى للعلاقات الثنائية. فقد تضمّن برنامج زيارة الأمير عبد الله بن عبد العزيز إجراء لقاءات مع قادة الإدارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا ومجلس المفتين في روسيا، وكذلك مع بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لإثبات واقعية "التعايش السلمي بين الإسلام والأرثوذكسية". فهذا التعايش يُجسّد "فراة الحضارة الروسية". وأسفر لقاء الأمير مع ميخائيل كاسيانوف، رئيس الوزراء عن إصدار بيان بشأن "تشكيل مجموعة عمل مشتركة روسية - سعودية حول قضايا مكافحة الإرهاب". وأكدّ عاهل المملكة لاحقاً، على نحوٍ قاطع، أنّ "القضية الشيشانية مسألة داخلية تخص روسيا"<sup>32</sup>. وعلّق إيفانوف على هذه الزيارة، فقال: "إنّ هذه المحادثات تفتح صفحةً جديدةً في العلاقات بيننا تتميز بالتعاون المتبادل البناء بروح الانفتاح والثقة المتبادلة"<sup>33</sup>.

<sup>29</sup> لقاء فلاديمير بوتين لجورج روبرتسون السكرتير العام لحلف الناتو، الكرملين، 2003/5/13، انظر:

<http://www.kremlin.ru/news/28624>

30 كلمة إيغور إيفانوف في المؤتمر الصحفي المشترك مع الأمير سعود الفيصل، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 6 (حزيران/يونيو 2003)، ص 8.

<sup>31</sup> المرجع نفسه.

<sup>32</sup> الأمير عبد الله، "القضية الشيشانية - مسألة داخلية تخص روسيا"، إزفستيا، 2003/9/4، انظر: <http://izvestia.ru/news/280837>

<sup>33</sup> كلمة إيغور إيفانوف في المؤتمر الصحفي المشترك مع سعود الفيصل، "3 أيلول/سبتمبر 2003، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 10 (تشرين الأول/أكتوبر 2003)، ص 6 - 7.

لقد اضطرت العلاقات القائمة بين روسيا ومنظمة التعاون الإسلامي قيادة البلاد إلى عدّ هذه المنظمة أداةً لتقليل تأثير المتشددين الإسلاميين في الأمة الإسلامية الروسية. علماً أنّ هذه العلاقات قد تطلبت تغيير التصورات بشأن طابع الدولة الروسية. وفي نيسان/ أبريل 2003، أعلن فلاديمير بوتين أنّ روسيا فيها "ملايين المسلمين الذين يعدّونها وطنهم"، وهو ما يؤكّد أنه يمكن وصفها بأنها "جزء من العالم الإسلامي"<sup>34</sup>. وقد حظي تحرك روسيا نحو توسيع علاقاتها بمنظمة التعاون الإسلامي بالدعم خلال الزيارة التي قام بها الأمير عبد الله بن عبد العزيز. فقد جاء في البيان الختامي الروسي - السعودي ما نصّه: "أعرب الجانب السعودي عن احترامه وتفهمه لمبادرة روسيا الاتحادية الرامية إلى توسيع التعاون مع منظمة المؤتمر الإسلامي"<sup>35</sup>. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2003، خاطب الرئيس الروسي، وقد كان أحمد قاديروف مرافقاً له، المشاركين في القمة العاشرة لمنظمة التعاون الإسلامي في بوتراجيا، معلناً ضرورة "مشاركة روسيا في نشاطها"، بالنظر إلى "ارتباطها بالعالم الإسلامي"<sup>36</sup>. وفي أواخر حزيران/ يونيو 2005 انضمت روسيا في الاجتماع الـ 32 إلى وزراء خارجية دول منظمة التعاون الإسلامي المنعقد في صنعاء إلى هذه المنظمة بصفة عضو مراقب. وإنّ تحقيق ذلك، بحسب قول الرئيس الروسي، لم يكن ممكناً من دون "دعم الملك عبد الله بن عبد العزيز"<sup>37</sup>.

كان التقييم الرسمي لتنشيط العلاقات مع منظمة التعاون الإسلامي متّسماً بالتفاؤل. وفي حزيران 2004، قال سيرغي لافروف المعين حديثاً في منصب وزير خارجية روسيا: "من الناحية السياسية لا أتذكر أنه وُجد عدم تفهم لأفعالنا من جانب منظمة التعاون الإسلامي، بل إنّ الأمر على عكس ذلك"، ثمّ ذكر أنّ بين روسيا ومنظمة التعاون الإسلامي "جاذبيةً متبادلةً"<sup>38</sup>. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2004، قال الرئيس الروسي "إنّ

<sup>34</sup> لقاء فلاديمير بوتين لأمان الله نعمة زادة مفتي مسلمي، طاجيكستان، الكرملين، 2003/4/27، انظر:

<http://www.kremlin.ru/news/28551>

<sup>35</sup> "البيان المشترك الروسي - السعودي"، الكرملين، 2003/9/2، انظر: [http://www.kremlin.ru/ref\\_notes/1712](http://www.kremlin.ru/ref_notes/1712)

<sup>36</sup> "خطاب الرئيس الروسي في اللقاء العاشر لرؤساء دول وحكومات منظمة المؤتمر الإسلامي"، الكرملين، انظر:

<http://bit.ly/1P7op0u>

<sup>37</sup> "خطاب الرئيس الروسي أثناء لقائه أوساط رجال الأعمال في المملكة العربية السعودية، الكرملين، 2007/2/12، انظر:

<http://news.kremlin.ru/transcripts/24037>

<sup>38</sup> "حديث سيرغي لافروف إلى ممثلي وسائل الإعلام الروسية في ختام مشاركته في دورة وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي"، دبلوماسيتشسكي فيستنيك، العدد 7 (حزيران/يونيو 2004)، ص 5-6.

اتباع الإسلام التقليدي في شمال القوقاز لا تسرهم المساعدات من المملكة العربية السعودية" (بناء مساجد جديدة)، ورأى أنه من الضروري المضي في طريق توسيع دعم الدولة لهذه العملية<sup>39</sup>.

وخلال الفترة 11-12 شباط/فبراير 2007، أجرى فلاديمير بوتين زيارةً رسميةً للمملكة العربية السعودية. وقُبل هذه الزيارة، اتخذت تدابير معينة (مبرر ذلك هو تنفيذ العملية الإرهابية بببسلان في الأول من أيلول/سبتمبر 2004) تهدف إلى تكوين منظومة إدارة (إقامة هرم السلطة التنفيذية" بحسب التعبير السياسي الروسي) تُعطي دوائر الدولة صلاحيات واسعة، وتقلص قدرات النخب والمعارضة في الأقاليم. وكان أحد هذه التدابير ممارسة الضغوط القسرية ضد الحركات المعادية للحكومة في شمال القوقاز. وسعت الدولة الروسية لاتباع نهج مقاومة "النظام الوحيد القطب القائم على أساس الهيمنة الأميركية في العلاقات الدولية"، وبررت ذلك بفرادة "تاريخ روسيا خلال ألف عام". وقد أورد الرئيس الروسي هذه الأفكار في 10 شباط/فبراير 2007، عشية سفره إلى الرياض، في خطاب ألقاه في مؤتمر ميونيخ حول قضايا سياسة الأمن<sup>40</sup>.

وتحدث بوتين مرّةً أخرى إبان وجوده في العاصمة السعودية عن تعدد القوميات والأديان في الدولة الروسية بقوله إنه "البيت المشترك للمسيحيين والمسلمين وأبناء الطوائف الأخرى الذين يعيشون على مدى القرون في وفاق وحسن جوار". وأثبت ضمّ رئيس تاتارستان منتيمير شايميميف إلى الوفد الروسي وجود هذا "الوفاق" الذي هو "الثروة القومية" لروسيا. لكنه عاد عندئذ في أثناء الانطلاق من الصيغ التقليدية للكلام إلى طرح فكرة "إقامة منظومة عادلة للبنين الدولي". وركّز بدقة في رفض نظام "القطب الواحد"، وقال: "إنّ روسيا تنوي اتباع هذه السياسة في جميع الاتجاهات، ومنها الفضاء الواسع لشبه الجزيرة العربية والخليج العربي وسائر العالم الإسلامي"<sup>41</sup>.

<sup>39</sup> نص تقرير مختزل بشأن لقاء الرئيس الروسي للمشاركين في مجمع الأساقفة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية"، الكرملين، 2004/10/6، انظر: <http://www.kremlin.ru/transcripts/22626>

<sup>40</sup> "خطاب الرئيس الروسي والمناقشات في مؤتمر ميونيخ حول قضايا السياسة في مجال الأمن"، الكرملين، 2007/2/10، انظر: <http://www.kremlin.ru/transcripts/24034>

<sup>41</sup> "خطاب الرئيس الروسي أثناء لقائه أوساط رجال الأعمال...".

كان أحد الجوانب المهمة للمحادثات الروسية - السعودية، خلال زيارة بوتين، رغبة الجانب الروسي في "إقامة تعاون اقتصادي وتجاري مع البلدان العربية"، ومن الممكن، أو الوجود، "أن تصبح المملكة العربية السعودية في هذا التعاون "ذات قيمة اقتصادية" بالنسبة إلى أوساط الأعمال الروسية. وعندما التقى الرئيس الروسي رجال الأعمال السعوديين، تحدّث عن التعاون في مجال استخراج مصادر الطاقة وتكريرها، وعن البنية الأساسية للنقل والفضاء وصناعة الطاقة الذرية وصناعة التعدين. وبحسب خبير روسي لاحقاً، كان المقصود من ذلك هو "اختراق مجال السيطرة الاقتصادية الأميركية"<sup>42</sup>. وأشار بوتين إلى "الإمكانات الغنية للسوق الروسية"، وأكد أنّ ميزات روسيا هي "النمو المستمر للاقتصاد، والاستقرار السياسي، والقاعدة القانونية الجيدة" المنبثقة من "هرم السُلطة" الذي تقيمه<sup>43</sup>.

لم يكن كشف الوثائق الثنائية الموقّعة في الرياض كبيراً وقادراً على إحداث تغيير جذري في التعاون الاقتصادي<sup>44</sup>. وعندما زار بوتين عمّان، في 13 شباط/فبراير 2007، في ختام جولته الشرق أوسطية، أجاب عن أسئلة الصحفيين الروس، فوصف المملكة العربية السعودية بأنها "الشريك رقم واحد" في مجال "تنسيق الجهد في أسواق الطاقة العالمية". وجاء ذلك خلال تطرّقه إلى مسألة تطوير "التعاون العسكري - التقني". ومن جهة أخرى، وبحسب قوله، فإنّ هذه المجالات هي "من مجالات التعاون الحساسة" التي لا يمكن التحدث عنها إلا بعد توقيع عقود بهذا الشأن<sup>45</sup>. والمقصود من ذلك، كما أكد الخبير الروسي، هو "أنّ تحقيق قدرات التعاون الاقتصادي الروسي - السعودي" يتطلب "تجاوز ركود الماضي"<sup>46</sup>، وممارسة التأثير في شرائح السُلطة السياسية. وقال إيغور إيفانوف سكرتير مجلس الأمن القومي الروسي (وزير الخارجية سابقاً) في أثناء زيارته لطهران عشية

42 أ. باجريكيتش، "جيوستراتيجية الطاقة: الربيع العربي"، مجدونا رودنايا جيزن، العدد 10 (تشرين الأول/أكتوبر 2011).

43 "خطاب الرئيس الروسي أثناء لقائه أوساط رجال الأعمال..".

44 "الرئيس الروسي، الوثائق الموقّعة في أثناء زيارته الرسمية إلى المملكة العربية السعودية"، أخبار الكرملين، 2007/2/11، انظر:

[http://news.kremlin.ru/ref\\_notes/3083](http://news.kremlin.ru/ref_notes/3083)

45 "الرئيس الروسي يجيب عن أسئلة الصحفيين الروس أثناء اختتام جولته في الشرق الأوسط"، الكرملين، 2007/2/13، انظر:

<http://www.kremlin.ru/transcripts/24041>

46 و. ب. أوزيروف، "روسيا والمملكة العربية السعودية: 20 عاماً من العلاقات الجديدة"، مجدونا رودنايا جيزن، العدد 11 (تشرين الثاني/نوفمبر 2011)، ص 8.

زيارة الرئيس بوتين إلى الرياض إنّ مبادرة روسيا المتعلقة بإقامة نظام أمن جديد في الخليج يضمّ إيران لم يلقَ من الجانب السعودي أيّ اهتمام<sup>47</sup>.

لقد سعت روسيا في أثناء تمرير نهجها نحو تفكيك "نظام القطب الواحد" في العلاقات الدولية لاستخدام إمكاناتها في منظمة التعاون الإسلامي. وعادت خلال دعمها لتأسيس مجموعة الرؤية الإستراتيجية "روسيا - العالم الإسلامي" إلى فكرة تعزيز العلاقات مع الجانب السعودي، وجذبت الانتباه إلى مبادرات شريكها المتعلقة بـ "الحوار بين الأديان والحضارات". وقد رحّب بوتين بعقد اجتماع هذه المجموعة في تشرين الأول/ أكتوبر 2008 في جدة، فأكد أهمية مبادرة الملك عبد الله بن عبد العزيز المتعلقة بـ "تطوير الحوار بين الأديان"، وعدّ أنّ مناقشتها يجب أن تكون البند الرئيس في جدول الأعمال، مع إضافة الاقتراح الروسي المتعلق بـ "استحداث المجلس الاستشاري للأديان تحت رعاية الأمم المتحدة" إلى مبادرة العاهل السعودي؛ وذلك لمصلحة "تعزيز المبادئ الأخلاقية في السياسة العالمية". وكان قصد الرئيس الروسي طرح "مهمّة عالمية" هي -كما جاء في تحيته - التخلي عن أوهام الماضي المتعلقة بالعالم الوحيد القطب"، ووجوب بلوغ "مستوى شراكة عالمي جديد"، وكذلك وجوب مرور الطريق إليه، ضمناً، بـ "التعاون الفعال بين روسيا والعالم الإسلامي"<sup>48</sup>.

## العلاقات الروسية - السعودية وثورات "الربيع العربي"

اقتصرت العلاقات السياسية الروسية - السعودية على الإجراءات البروتوكولية إلى حدّ عام 2011 حين بدأ "الربيع العربي". وعلى الرغم من أنه جاء في عقيدة السياسة الخارجية الجديدة لروسيا الاتحادية (صدّقها الرئيس دميتري ميدفيديف في يوليو 2008) أنّ روسيا ستتوجه نحو "تطوير العلاقات" مع المملكة العربية السعودية، فإنّها تضمنت دائرةً أوسع من "الدول الكبرى الإقليمية"، ومنها إيران التي اعتزمت موسكو توطيد صلاتها بها

<sup>47</sup> "إيغور إيفانوف: روسيا تدعو إلى تكوين منظومة أمن إقليمي تراعي مصالح جميع بلدان الخليج العربي"، مجلس الأمن الروسي، 2007/1/30، انظر: <http://www.scrf.gov.ru/searchhl?url=news/153.html>

<sup>48</sup> "تحية الرئيس الروسي إلى المشاركين في اجتماع مجموعة الرؤية الإستراتيجية 'روسيا - العالم الإسلامي'، الكرملين، 2008/10/28، انظر: <http://www.kremlin.ru/news/1877>

"على الصعيدين الثنائي والمتعدّد الأطراف". أمّا منظمة التعاون الإسلامي، فإنها أُدرجت في هذه الوثيقة "في إطار تنفيذ مبادرة الشركاء في "مجموعة الثماني" في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"<sup>49</sup>.

لقد تطلبت كلّ من آثار النزاع العسكري الروسي - الجورجي، في آب/ أغسطس 2008، والأزمة المالية والاقتصادية، في الفترة 2008 - 2009، من الرئيس الروسي الثالث إعداد أشكال جديدة من العلاقات مع الغرب. وقد حدّد هذا الأمر استنتاجات خبير وزارة الخارجية الروسية الذي كتب حول العلاقات الروسية - السعودية في نهاية عام 2010 ما يلي:

"إنّ روسيا تطوّر علاقاتها بالمملكة العربية السعودية، لكنّ ذلك ليس على حساب مصالح بلدان أخرى سواء كانت إقليمية أو غير إقليمية، أو بالإضرار بمصالح أيّ طرف آخر. إنها بسبب الاكتفاء الذاتي لا تصبو إلى الحصول على قواعد عسكرية أو مراقبة إرساليات النفط في هذه المنطقة التي تتوء بها وطأة الحضور العسكري الأجنبي والنزاعات، وإنها لا تمارس الألعاب الجيوسياسية الخطرة (... ) إنّ موسكو تقيم علاقاتها مع الرياض على أساس القانون الدولي، وعلى قاعدة مبادئ التعاون المتكافئ والمنفعة المتبادلة، لمصلحة الاستقرار والسلام في الشرق الأوسط، وفي منطقة الخليج"<sup>50</sup>.

وطال تقليص التعاون الروسي - السعودي الجانب الديني أيضاً. فقد تحدث دميتري مدفديف في آب/ أغسطس 2009، في أثناء لقاء المفتين وقادة أقاليم شمال القوقاز، عن أهمية التعليم الديني في روسيا كلّها، وعن أفضله "المشاريع التنويرية" والمؤسسات التعليمية في "ليبيا وسورية ومصر"، مؤكداً أنّ ما يُمكن طرحه هو "الاتصالات مع المملكة العربية السعودية حول قضايا الحج المتفق عليها مع السلطات الاتحادية والمحلية"<sup>51</sup>.

لقد أحدث "الربيع العربي" الذي سرعان ما وُصف في روسيا بـ "زمن الفتنة" تغييراً جذرياً في لهجة الخطاب الروسي وكذلك في سياستها تجاه المملكة العربية السعودية. وعُدّت أحداث 2011 - 2012 بمنزلة صيغة

<sup>49</sup> الرئيس الروسي، عقيدة السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، الكرملين، 2008/7/15، انظر: <http://kremlin.ru/acts/785>

<sup>50</sup> أوزيروف، ص 10.

<sup>51</sup> خطاب الرئيس الروسي في اللقاء الذي جمع المفتين ورؤساء أقاليم شمال القوقاز، الكرملين، 2008/8/28، انظر:

<http://www.kremlin.ru/transcripts/5296>

جديدة لـ "الثورات الملونة" التي تخطط لها الولايات المتحدة وتنفذها "الأنظمة الأوتوقراطية الشرق أوسطية"، وتُذكر في صدارتها المملكة العربية السعودية التي يراد لها أن تصبح "الراعي الإقليمي باسم الغرب"<sup>52</sup>. وعُدّت هذه الأحداث بمنزلة ضربة للمصالح الاقتصادية الروسية، ويمس ذلك بالدرجة الأولى ليبيا<sup>53</sup>. وفي نهاية نيسان/ أبريل 2012، قال مدفيدف بتشأوم في سياق الحديث عن تطور الأحداث في العالم العربي: "سينتهي 'الربيع العربي' بقدوم 'الخريف العربي، البارد'. وقال أيضاً "إنّ الراديكاليين سيندفعون إلى السُلطة، وسيكون العمل معهم أصعب كثيراً"<sup>54</sup>.

ووصفت خبيرة وزارة الخارجية الروسية المملكة العربية السعودية خلال تعليقها على أحداث "الربيع العربي" بأنها تحافظ في سياستها الخارجية على صورة "الشريك الوفي" للولايات المتحدة. وبحسب رأيها، من المحتمل أن تُتخذ خطوات سعودية مستقلة بهدف "إبعاد الموجة الثورية إلى خارج ممتلكاتها"، على أن "تجرف هذه الموجة في طريقها الأنظمة العربية العلمانية" وتظهر محلّها أحزاب ومنظمات إسلامية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بـ "الثنائي الوهابي" (المملكة العربية السعودية وقطر)، على حدّ زعمها. وترى هذه الخبيرة أنّ هذا التوجه ظهر ظهوراً جلياً في سورية، وأنّ "السعوديين والقطريين يعملون في هذا الشأن بالتحالف مع الناتو"<sup>55</sup>.

أصبح بوتين، في 7 أيار/ مايو 2012، مرّةً أخرى رئيساً لروسيا، واكتسب نهج السياسة الخارجية سمّةً جديدةً، وقد وُصف في الخطاب الروسي بأنه السعي لـ "التزعم بحماية القانون الدولي" واكتساب الشرعية، اعتماداً على "تاريخ روسيا العظيم وثقافتها"<sup>56</sup>. وألقى الرئيس الروسي خطاباً في الجمعية الفدرالية (البرلمان) في كانون الأول/ ديسمبر 2013 وصف فيه الوضع في الشرق الأوسط في فترة ما بعد "الربيع العربي" باستخدام مصطلحات من قبيل: "عودة إلى الوراء" و"همجية و"إراقة الكثير من الدماء".

<sup>52</sup> انظر على سبيل المثال: و. و. بافلوف، "الفتنة" في العالم العربي، أو إلى أين تقود أزمان الاضطرابات في الشرق الأوسط؟، مجدونا رودنايا جيزن، العدد 11 (تشرين الثاني/نوفمبر 2011)، ص 28.

<sup>53</sup> "تصريح الرئيس الروسي بشأن الوضع في ليبيا"، الكرملين، 2011/3/21، انظر: <http://www.kremlin.ru/news/10701>

<sup>54</sup> مقابلة مع الرئيس الروسي، قنوات التلفزيون الروسية، الكرملين، 2012/4/26، انظر: <http://www.kremlin.ru/news/15149>

<sup>55</sup> د. ماليشيفا، "دول الخليج العربي و'الربيع العربي'"، مجدونا رودنايا جيزن، العدد 8 (تموز/يوليو 2012)، ص 24 – 25.

<sup>56</sup> "رسالة الرئيس إلى الجمعية الفدرالية"، الكرملين، 2013/12/12، انظر: <http://www.kremlin.ru/news/19825>

وعندما تحدث بوتين عن مواجهة روسيا لممارسات "حقّ القوة"، و"حقّ القبضة"، فإنه كان يقصد بذلك الولايات المتحدة وحليفاتها. وقد أكدّ الرئيس الروسي في سياق الإشارة إلى الاتفاق الروسي-الأميركي بشأن التخلّص من السلاح الكيماوي السوري أنّ موقف الدفاع عن "الأحكام الأساسية للقانون الدولي" حال دون وقوع "التدخل العسكري الخارجي في الشأن السوري"، ووجد أنه من الضروري العمل على "دعم العملية السياسية السورية العامّة"، وعدّ النظام السوري شريكاً طبيعياً فيها. وطالب بوتين بالاعتماد على "الوسائل السياسية حصراً"، وركّز في أنّ مهمّة المفاوضات بشأن البرنامج النووي الإيراني هي "البحث بدأبٍ وصبرٍ عن حلٍّ شاملٍ يضمن حقوق إيران الراسخة في تطوير صناعة الطاقة الذرية السلمية وضمان أمنها".

وفي 31 حزيران/ يونيو 2013، جرى لقاء الأمير بندر بن سلطان وفلاديمير بوتين الذي فسّره الصحافة الروسية بأنه محاولة فاشلة لعقد صفقة سلاح، مقابل إضعاف الدعم العسكري والدبلوماسي لبشار الأسد<sup>57</sup>. أمّا لقاءه الرئيس الروسي في 8 كانون الأول/ ديسمبر 2013، فإنه بمنزلة "إنذار" لروسيا، تمثّل بالعمليات الإرهابية في فولغ وغراد في نهاية الشهر<sup>58</sup>. ومن جهة أخرى، أثار بيان قسطنطين دلفوف مفوض وزارة الخارجية الروسية لشؤون حقوق الإنسان والديمقراطية وسيادة القانون المنشور، في 12 حزيران/ يونيو 2012، ردّات فعل سلبية شديدة بالنسبة إلى الجانب السعودي، في ما يتعلّق باعتقال نمر النمر في المنطقة الشرقية ومطالبة البيان "بضمان حقوق الإنسان"<sup>59</sup>.

وكان ذلك يعني فقدان التعاون الروسي - السعودي نقاط التماس. وقد ورد في العقيدة الجديدة للسياسة الخارجية لروسيا الاتحادية التي جرى تصديقها في شباط/ فبراير 2013 تأكيداً لسعي الجانب الروسي لـ "المساهمة برصيده في استقرار الوضع بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، والعمل على "تسوية النزاع العربي - الإسرائيلي تسويةً شاملةً، على أساس مُعترف به دولياً. ويتضمّن ذلك إقامة "الدولة الفلسطينية المستقلة" واستحداث "منطقة في الشرق الأوسط خالية من سلاح الدمار الشامل ووسائل إيصاله". وأعلنت العقيدة الجديدة، من دون ذكر للمملكة

<sup>57</sup> ي. نوفيكوفا، "بوتين لا يبادل الأسد بـ 15 مليار دولار سعودي"، نيزافيسيمايا غازيتا، 2013/8/9.

<sup>58</sup> انظر على سبيل المثال: أ. المريدي، "إنذار الأمير بندر"، فزغلا، 2013/12/23، على الرابط: <http://bit.ly/1Gymr86>

<sup>59</sup> تعليق قسطنطين دولغوف مفوض وزارة الخارجية الروسية لشؤون حقوق الإنسان والديمقراطية وسيادة القانون على الوضع في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وزارة الخارجية الروسية، 2012/7/12، انظر: <http://bit.ly/1WjhpDo>

العربية السعودية، أنّ من أولويات سياسة روسيا في الشرق الأوسط السعي لـ "توسيع التعاون مع دول العالم الإسلامي"، و"تطوير العلاقات الثنائية مع دول الشرقين الأدنى والأوسط" (بتوحيد العالم العربي كلّه وإيران)<sup>60</sup>.

لقد بدت نقاط التماسّ السياسي الروسي – السعودي جزئيةً، فلم يرد في عقيدة عام 2013، وفي الوثائق التالية لوزارة الخارجية الروسية، ضمناً، ذكر "مبادرة السلام العربية" في سياق الشرعية الدولية خلال تناول موضوع تسوية النزاع في الشرق الأوسط. بل إنّ الأمر على عكس ذلك. فقد اتسمت خطوط الخلاف بالازدياد أكثر فأكثر. وشاركت روسيا في مؤتمر "جنيف 2" بوصفها نصيراً لأحد طرفي النزاع الداخلي السوري (وهي كذلك من أنصار مشاركة إيران في لقاءات مونترال النشيطين)، بإعلانها وجوب مشاركة النظام في عملية التسوية<sup>61</sup>. ولم يعلّق المسؤولون في موسكو إطلافاً على الدعم الإيراني لنظام بشار الأسد، كما أنّ مشاركة حزب الله في النزاع الداخلي السوري لم تُستتكر.

إنّ القيادة الروسية إذ تقيم علاقات مع حماس، ألقت المسؤولية نفسها عن الوضع في غزة على طرفي النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي. ثمّ إنّ المسؤولين في موسكو وسّعوا، بدأً، الاتصالات مع حكومة نوري المالكي بالنظر إلى أنّ وحدة العراق التي تتعرض لـ "الاختبار" يجب أن تتعرّز في طريق التوصل إلى توافق "بين جميع بلدان المنطقة، ومنها إيران"<sup>62</sup>.

لقد أعلنت موسكو أنّ "الدولة الإسلامية" تُشكّل تحدياً بالنسبة إلى المجتمع الدولي "لا مثيل له" (بحسب تصريح ألكسندر بورتنيكوف رئيس جهاز الأمن الفدرالي الروسي، يحارب في صفوفها نحو 1500 مواطن روسي<sup>63</sup>)، وعدت هذا التنظيم الإرهابي يشكل تهديداً لروسيا<sup>64</sup>. في حين قال بوتين في تصريح أدلى به إلى جريدة "الأهرام"

<sup>60</sup> "عقيدة السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية"، وزارة الخارجية الروسية، 2013/2/12، انظر: <http://bit.ly/1lpRW7X>

<sup>61</sup> "كلمة سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسي وأجوبته عن أسئلة الصحفيين في ختام المؤتمر الدولي لتسوية الأزمة السورية 'جنيف 2'، وزارة الخارجية الروسية، 2014/1/22، انظر: <http://bit.ly/1HdsDgy>

<sup>62</sup> "حديث سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسي إلى برنامج 'فيستي ف سوبوتو'، وزارة الخارجية الروسية، 2014/7/28، انظر: <http://bit.ly/1M34j6A>

<sup>63</sup> "المتشددون الإسلاميون يقيمون جسراً بين موسكو وواشنطن"، كوميرسانت، 2015/2/21، انظر: <http://bit.ly/1LDLGVo>

<sup>64</sup> "ميخائيل بوغدانوف نائب وزير الخارجية الروسي: نحن نواجه أمة إرهابية"، كوميرسانت، 2014/9/29، انظر:

<http://bit.ly/1PSnVNa>

في شباط/ فبراير 2015 عشية زيارته الرسمية للقاهرة: "ينبغي أن أذكر أنّ الأفعال التي تقوم بها أطراف الائتلاف المضاد للإرهاب غير شرعية، لأنها تُنفَّذ من دون موافقة مجلس الأمن. وفي سورية يرفض الائتلاف التعاون مع السلطات الشرعية"<sup>65</sup>. وعلّق سيرغي لافروف، في أواخر آذار/ مارس 2015، على العملية ضدّ الحوثيين "عاصفة الحزم"، فوصفها بأنها "لعبةٌ مواجهةٌ بين السنّة والشيعية خطيرة"<sup>66</sup>.

ثمّ إنّ التعاون بين روسيا ومنظمة التعاون الإسلامي قد تغير أيضاً. فأثناء لقاء بوتين في تشرين الأول/ أكتوبر 2013 في أوفاء زعماء الهيئات الدينية الإسلامية الرسمية، عاد إلى الحديث عن قضية "التيارات المتشددة" التي تولّد "نزاعات في الأراضي الروسية بإيعاز من الخارج". ورأى أنه من الضروري إعلان أنّ جواب الأمة الإسلامية الروسية عن هذه الأفعال يجب أن يتمثّل بـ "التقاليد التاريخية، وعلاقات الشراكة، ولا سيما مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية"، وبـ "تأسيس مدرسة فقهية روسية ذات سيادة" أيضاً<sup>67</sup>.

لقد أدت الأزمة الأوكرانية عام 2014، وقد عُدتّ "ثورةً ملوّنةً" جديدةً تقع بالقرب من روسيا مباشرة، إلى تصعيد الخطاب المعادي لأميركا وأوروبا، واحتدم ذلك أكثر فأكثر بعد فرض العقوبات على روسيا بسبب قضية القرم. وأكّد الرئيس الروسي، راداً على هذه العقوبات، أنّ تقليص العلاقات الاقتصادية مع الغرب يدفع روسيا إلى "توسيع العلاقات التقليدية" مع "بلدان الشرق الأوسط"<sup>68</sup>. ولم يذكر بوتين المملكة العربية السعودية من بين هذه البلدان، بل إنه، على العكس من ذلك، أورد أكثر من مرّة فكرة مفادها احتمال وجود "مؤامرة" ضدّ روسيا تتعلق بخفض أسعار النفط العالمية. وهذا الأمر بحسب رأيه، لا يمكن أن تقوم به "سوى المملكة العربية السعودية"<sup>69</sup>.

<sup>65</sup> "حديث الرئيس الروسي مع صحيفة الأهرام المصرية"، الكرملين، 2015/2/9، انظر: <http://bit.ly/1MkfqUr>

<sup>66</sup> "كلمة سيرغي لافروف وزير الخارجية الروسي وأجوبته عن أسئلة الصحافيين في المؤتمر الصحافي المشترك مع ك. موراليس وزير خارجية غواتيمالا. 2015/3/26، انظر: <http://bit.ly/1MVWoED>

<sup>67</sup> "بداية لقاء الرئيس الروسي لرؤساء الإدارات الدينية لمسلمي روسيا"، الكرملين، 2013/10/22، انظر: <http://www.kremlin.ru/transcripts/19474>

<sup>68</sup> "رسالة الرئيس الروسي إلى الجمعية الفدرالية"، الكرملين، 2014/12/4، انظر: <http://kremlin.ru/news/47173>

<sup>69</sup> "الخط المباشر مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين"، الكرملين، 2014/4/17، انظر: <http://www.kremlin.ru/news/20796>

## خاتمة

إنّ التعاون الروسي – السعودي تكتفه الخلافات. وقد نشأ وضع الخلافات بين البلدين من إدراك دور روسيا ومكانتها في العالم، في فترة ما بعد زوال الاتحاد السوفياتي، وقد أُنْزِلَ ذلك في الوضع السياسي الداخلي وتطور علاقاتها مع الغرب. ويبدو من غير المحتمل حالياً حدوث أيّ تغيير في الوضع السياسي الداخلي الروسي أو تقلص مستوى المواجهة الروسية – الأميركية، وهو ما يعني أنّ الوضع الراهن للعلاقات الثنائية لن يميل إلى التغيير.